

(١٠)

## أوسع وأكثر اتساعاً

يا أرض الأمل والمجد يا أم الحرية

كيف يمكن أن نبجلك ، نحن الذين ولدتنا

سوف تتسع حدودك أكثر فأكثر

فالرب الذى جعلك عظيمة سوف يجعلك أكثر عظمة(\*)

إن مثال الشعب المختار ليس مجرد تعبير مجازى؛ إذ إنه كان يصف كيف كان الناس يتصرفون فى الماضى ، ولكنه أيضاً يوصى بكيفية ما يجب أن يكون عليه تصرفهم فى المستقبل . وقصيدة «أرض الأمل والمجد» توضح هذا المثال فى أدائه . فقد كانت القصيدة مكتوبة لتكون نشيداً وطنياً لانجلترا ، ولا بد أنها كانت ستبدو مناسبة مثل - وربما أكثر فى أيامنا هذه - نشيد وطنى للولايات المتحدة الأمريكية؛ إذ إن تاريخ انجلترا على مدى ما يزيد على أربعة قرون ، وتاريخ أمريكا على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون ، هما قصة مجتمعين يعيشان تحت تأثير هذه الفكرة الهادية القوية . ولم يكن مصدرها البروتستانتية وحدها ، ولكن الوطنية البروتستانتية ، والرغبة فى تعريف مجتمع وطنى بأنه جاء إلى الوجود ؛ لأن الرب أراد له أن يفعل ذلك ؛ لأنه كان له غرض لهذا المجتمع . وإذا كان البروتستانت قد رفضوا سلطة الكنيسة فى أمور الدين ، فإنهم استقوا تعاليمهم الدينية من الاتجاه

(\*) كلمات إيه . سى . بنسون .

الأخر الوحيد المتاح أمامهم، صفحات النصوص المقدسة. وفيها وجدوا تاريخ الإسرائيليين القدماء الذين صاروا أمة مقدسة بإرشاد الرب، وعدّلوا تلك القصة بحيث تناسبهم. هكذا فعلت أول دولة وطنية مستقلة تماماً في التاريخ الحديث، وهي مملكة انجلترا تحت حكم هنرى الثامن سنة ١٥٣٥م.

وعلى مدى زمن طويل كان هذا الشكل من الوطنية البروتستانتية يُؤخذ على أنه شيء ليس أقل من المسيحية نفسها. إلا أنه مع نهاية القرن العشرين كان معظم المتحدثين باسم التيار الرئيسي في المسيحية البروتستانتية في كل من البلدين، قد توصلوا إلى اعتبار الوطنية البروتستانتية - كما وصفناها - انحرافاً عن نقاء الحقيقة المسيحية. وبقدر ما كان هناك أي شيء على كوكب الأرض يحظى بالاعتراف بأنه «الجيل المختار والقساوسة الملكيون، والأمة المقدسة، وشعب مخصوص» حسبما في رسالة بطرس الأولى، فإنهم كانوا سيقولون: إنها تلك الكتلة الخفية عديمة الشكل من المؤمنين المسيحيين من جميع الجنسيات والمذاهب التي انضمت لبعضها البعض. ولكن تلك نظرة حديثة نسبياً يرجع تاريخها بقدر كبير إلى تلك الفترة التي طورت المسيحية البروتستانتية فيها بناءات عالمية مثل مجلس الكنائس العالمي (الذي تأسس سنة ١٩٤٨م)، والطائفة الأنجليكانية (كان أول مؤتمر في لامبث قد عُقد سنة ١٨٦٧م). وقبل ظهورهما، كان السائد عموماً أن على كل طائفة بروتستانتية أن تكون لها جذورها في بلادها. وكان هذا أحد الموضوعات التي ميزت البروتستانتية عن الكاثوليكية.

ويتضح من التاريخ أن الأفكار الدينية عموماً ثابتة وأن تحولها لا يتم سوى بصورة بطيئة. فهي تتصرف مثل تيارات المحيط العميقة الخفية التي تنقل ملايين الأطنان من الماء إلى مسافات هائلة، تصل في بعض الأحيان إلى نصف كوكب الأرض، ولا تصدر عنها سوى إشارة صغيرة إلى وجودها عند السطح، إلا أنها تسيطر على المناخ، كما أن الاضطراب الدائم في نموذج تدفقها قد يغير مصير قارات بأسرها ويغيّر الظروف المعيشية للأمم بأكملها. فما هو مرأى على السطح هو الموجات والانكسارات الصغيرة التي ترجع إلى حد كبير لتأثير الرياح

والطقس، ولكنها قد تعطى انطباعاً مضللاً بما يحدث في الأعماق البعيدة. وهذا تعبير مجازي مفيد بالنسبة للأفكار الدينية، ومثال الشعب المختار في الوطنية البروتستانتية يمكن اعتباره أحد التيارات في أعماق المحيط، وربما لا تكون مرئية عند السطح. وحتى العواصف العنيفة قد لا تؤدي إلى اضطراب هذه التيارات، ولكن يحدث أحياناً، ولأسباب غامضة، أن تتغير هي بنفسها. ويصدق هذا أيضاً على الدين، فمن ذا الذي يعرف السبب في أن الاسكتلنديين المحليين اعتنقوا حركة الإصلاح البروتستانتية، وأن الأيرلنديين الوطنيين لم يفعلوا؟

ومبدأ ماكس فيبر بأن القناعات الدينية الواضحة لجيل بعينه عادة ما تصير هي الفروض الضمنية غير المختبرة للجيل التالي، يعني أن مثال الشعب المختار ربما يستمر في تشكيل عادات الفكر ونماذج السلوك، بعد أن يكون الناس قد فقدوا اتصالهم بأصول هذه المؤثرات بزمن طويل. فهي، على حد تعبير المشاة البريطانيين في الجبهة الغربية «هناك لأننا هناك لأننا هناك لأننا هناك .. إلخ». ونادراً ما يكون هناك انكسار حاد في المعتقدات أو الممارسات الدينية بين جيل ما وجيل آخر يليه. وعلى العكس، فإن المعتقدات ستبقى غالباً مستمسكاً بها حتى بعد أن تكون قد فقدت أي علاقة لها بالواقع. وهناك مناطق من الريف الإنجليزي ما تزال تلح في طلب قسيس ليقوم بالصلاة عندما يعاني شخص ما سكرات الموت؛ لأن «هذا ما تفعله» حتى على الرغم من أن كنيسة انجلترا ليست لديها طقوس خاصة بسرير الموت، ولكن هذا ما كانوا يفعلونه قبل حركة الإصلاح الديني، وتستمر العادة حية. ويوم الجمعة يوم مزدحم في محلات «السّمك والبطاطس - Fish and Chip» في انجلترا، حتى على الرغم من الامتناع الإجماعي عن أكل اللحم في يوم الجمعة قد ألغته حركة الإصلاح الديني. ومرة أخرى، كان هذا ما يفعلونه قبل حركة الإصلاح الديني، ومرة أخرى تستمر العادة حية.

وربما كان الأمر يبدو واضحاً أن شرطاً ضرورياً للإيمان بأن الأمة التي ينتمي المرء لها هي الأمة المختارة، مثل اليهود في العهد القديم، هو الإيمان بالرب، إذ لا يمكن أن يكون المرء مختاراً من الرب إذا لم يكن هناك رب. بيد أن هذا ليس

كذلك بالضرورة؛ إذ إن الكائنات البشرية ليست منطقية هكذا. فتوماس هكسلي، مثلاً، الذي كان واحداً من كبار العلماء في القرن التاسع عشر وكان طوال حياته مدافعاً وداعية لنظريات تشارلز داروين، كان يؤمن بأنه مكلف بمهمة أن يستبدل المسيحية بالعلم، أو بتحديد أكثر أن يحرم المؤسسة الأنجليكانية من وضعها المختار في المجتمع الإنجليزي ويستبدلها بكنيسة علمية، على حد تسميته. كانت نغمته إنجيلية، بل إن التلميذ البروتستانتي كان ضمن قضيته. وفي محاضرة ألقاها سنة ١٨٥٥م ويخ سامعيه (أو الجماعة المسيحية)؛ لأن «عصر الأوثان هذا» كما قال «ينصت إلى صوت الرب الحي يرعد من سناء العلم، وينسى مباشرة كل ما سمعه؛ لكي يتمسح في خرافاته الخاصة، ولكي يعبد العجل الذهبي للتقاليد، ولكي يصلى ويصوم حيث ينبغي أن يعمل ويطيع، وأن يضحي بأولاده للإله بعل اللاهوتي كما كان يحدث قديماً». وتمادى إلى درجة خلق المعادل لمدارس الأحد، حيث يغنى الأطفال الترانيم العلمية المعادلة للترانيم الدينية، وأسس متحف الفن الطبيعي في لندن باعتباره المعادل العلمي للكاتدرائية. وصك مصطلح «اللاأدرية - Agnostic»، الذي يعنى الفرد الذي لا يدرى إذا ما كان هناك رب أم لا، ولكن إذا حكمنا بالأراء الدينية التي عبر عنها فعلاً، فقد كان ملحداً حقاً. وملحد يؤمن بالقدر قد يبدو أمراً متناقضاً، بيد أن ذلك لم يكن يزعجه. وفكرة أن انجلترا لها قدر أن تكون الأمة الرائدة علمياً في الدنيا، وهي فكرة مستمدة من إسحاق نيوتن، كانت تبدو طبيعية تماماً بالنسبة له. فَيُضُّ لكليهما أن يكون رئيس الجمعية الملكية، التي كان يسرها أن تعتبر نفسها المنظمة العلمية الأولى في العالم.

كان نيوتن واحداً من أبطال مذهب التوحيد في الألوهية الذي كان يؤمن بأن الكون، ربما يكون قد شُيد كما لو كان على يد صانع ساعات إلهي - أداره ثم تركه يعمل. هذا الرجل العلمي الممتاز كان خبيراً بتصميم الساعة الإلهية، إلا أن تلك كانت طريقة واحدة فقط لقضاء أمسياته في القرن السابع عشر، وكانت الأمور الأخرى التي تستحوذ عليه هي التأمل في أسرار نبوءات الكتاب المقدس، بما في

ذلك محاولة معرفة نهاية الزمان من فقرات غامضة فى سفر دانيال. وأى وقت زائد كان يقضيه فى التأمر وتديبر المكائد إما لإقصاء الكاثوليك عن كامبريدج (وكان واحد منهم يرغب فى أن يسجل لدرجة البكالوريوس)، أو كيف يبعد دوق يورك عن عرش انجلترا. وكان نيوتن مقتنعاً بأن قدره هو أن يقود انجلترا لكى تصبح الأمة الأولى فى البحث العلمى، ومن ثم تكون الأمة الأولى فى حضارة العالم، وتنبأ بهذا المصير فى صفحات العهد القديم والعهد الجديد. كان شخصاً مختاراً فى وسط الشعب المختار، وكان على قناعة أيضاً بأن قدره الشخصى والوطنى سوف يلحق به الدمار إذا تسامحت انجلترا مع الكاثوليكية.

وفى اتساق مع الرأى العلمى المحترم، رأى أن البابا مثل المسيح الدجال، وتاريخ العالم الذى كان يقبله شخصياً، والذى أبعدته قليلاً عن رفاقه من البيوريتان، هو أن الفساد الكاثوليكي قد بدأ، على حد قوله، بإدانة البابوية للهراطقة الأريوسية (على اسم أريوس، منشق مسيحي من القرن الثالث). وسمى نفسه أريوسيا ومن ثم لم يقبل ألوهية المسيح، والواقع أنه لهذا السبب كان عليه أن يحصل على إعفاء ملكى من القسم قبل أن يتولى كرسى الأستاذية فى كامبريدج. كان رجل القدر هذا، على مدى ثلاثمائة سنة فى انجلترا وأمريكا، النموذج الراسخ للعالم السوبر (كان توماس چيفرسون، الموحد الشكاك، وثالث رئيس لأمريكا، متأثراً بكتاب نيوتن حول التطبيق الحقيقى للأدب المعلق برؤيا دانيال ونهاية الدنيا على العالم الحديث لدرجة أنه أمر بطباعة طبعة جديدة على حسابه).

وهكذا فإن الإيمان بالرب المسيحى ليس ضرورياً، على الرغم من أنه يساعد. ومن ثم، فإنه ليس هناك سبب واضح فى أن الليبراليين اللأدرين فى الولايات المتحدة لا يستطيعون تصديق أن الأمريكين هم شعب الله المختار، على الرغم من أنهم، كما لاحظنا فعلاً، ربما يفضلون وصف هذه العقيدة بالمصطلح الأكثر أكاديمية واحتراماً وإيحاء بالحياد، وهو الاستثنائية الأمريكية. وينطبق هذا أيضاً على الاشتراكيين الإنجليز قبل وبعد الحرب العالمية الثانية والذين أرادوا أن يبنوا ما يسميه كوريللى بارنيت فى كتابه المسمى «The Audid Of War»، القدس

الجديدة. وكان بعضهم «لا أدريين» أو ملحدين ، ولكنهم كانوا يشتركون فى الرؤية اليوتوبية والألفية، فى الواقع ، للاشتراكيين المسيحيين . وربما يمكن أن نعددهم ، من ثم ، جزءاً مكملاً من مشروع الشعب المختر حتى ولو لم يكونوا يؤمنون بإله يقوم بمثل هذه الاختيارات .

ولكن إذا لم تكن أيديولوجية الشعب المختر تستند بصراحة على العقيدة الدينية ، فإنها تعتمد بالتأكيد وبدرجة أكبر كثيراً على نمط بعينه من الوطنية . وخصائص الشعب المختر الكاملة التى حددها العهد القديم تصف أمة أو شعباً يلقى المكافأة حين يبقى على إخلاصه ، ولكنه إذا انحرف فعليه أن يتوقع العقاب بالفشل أو بالهزيمة (ربما يكون ذلك أصل «الدروس المستفادة للمرء» بعد الجلد الشديد بالسياط) . ومن ثم فإن الأمة التى لا تبدى سوى القليل فى سبيل إرضاء الرب ستكون تافهة غير مقنعة إذا ما ادّعت أن الرب يقف إلى جانبها . ومن ناحية أخرى فإن الأمة التى تتمتع بالنجاح يمكن أن تقنع نفسها بسهولة أنها تستدفع بالعناية الإلهية الرحيمة .

ذلك ما كان بالتأكيد مزاعم قابلة للتصديق من جانب الإنجليز (أو البريطانيين حتى يكون الأمر أكثر كمالاً) حتى الحرب العالمية الأولى . وكان ذلك عندما زحف أول شك كبير إلى الداخل . وليست هناك مقاييس إحصائية يمكن من خلالها رسم خارطة التدهور فى الثقة الوطنية بتعريف الهوية الإنجليزية على أساس فكرة الشعب المختر . بيد أنه ربما يفترض أن مثل هذه الإحصائيات ، إن وُجدت ، كان لا بد أن تضمحل سنة بعد أخرى منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ؛ لأن الدليل على عمل العناية الإلهية الرحيمة كان يضعف باطراد سنة بعد أخرى . وقد وُفترض أيضاً أن مثل هذه الإحصائيات سوف تتخذ نموذجاً مشابهاً جداً لإحصائيات عضوية كنيسة انجلترا التى أوردها آلان ويلكنسون فى كتابه الذى يحمل عنوان : «The Church of England and The First World War» ، وبعبارة أخرى : «تدهور مطرد قاس على مر السنين» . ومن الواضح أن هناك علاقة وطيدة تربط بين الاثنين . فقد حدث شىء فى تلك الحرب ، حسبما يستنتج ويلكنسون ، لم تشف منه كنيسة انجلترا أبداً .

والواقع، أن السلطة التي تحتاجها كنيسة وطنية لكي تكون قادرة لكي تبشر بالإنجيل بطريقة إجبارية، لا تقوم على مجرد خصائصها الخاصة، ولكن على خصائص الأمة التي ترتبط بها (والتي تزعم أنها تمثل الوجه الروحي لها). والأمة القوية لا بد أن تكون لها عقيدة قوية؛ وسوف يبدو المزيج صلباً بما يكفي لأن يكون مقنعاً. والأمة الإنسانية الخالصة ستكون لها كنيسة إنسانية خالصة، ولن تمر الكثير من المساندة بينهما في اتجاه دون الآخر. ووفقاً لاستطلاع أجراه «المركز الوطنى للبحث الاجتماعى - National Centre for Social Research»، نشر سنة ٢٠٠٠م، زعمت نسبة ٤٨ في المائة فقط من الناس في المملكة المتحدة أنهم ينتمون إلى أية ديانة، مقارنة بـ ٨٦ في المائة في الولايات المتحدة. ونسبة الحضور في صلوات كنيسة إنجلترا يوم الأحد نقصت عن مليون علامة للمرة الأولى أواخر التسعينيات من القرن العشرين. وليست مصادفة أن كنيسة إنجلترا قد سعت، في الفترة التي يشملها البحث، إلى أن تدعم ثقتها بنفسها عن طريق تعظيم دورها ككنيسة أم للطائفة الأنجليكانية وكذلك عن طريق لعب دور «أحسن صديق» للقوة الروحية العظمى في العالم الحديث، أى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، تماماً مثلما أفادت السياسة الخارجية البريطانية كثيراً مما يسمى «العلاقة الخاصة» مع القوة العظمى المادية عبر الأطلنطي. وأولئك الذين لاحظوا رئيس الوزراء تونى بليز يقف إلى جانب الرئيس بيل كلينتون في احتفالات الأمم المتحدة بالألفية الثانية في نيويورك سنة ٢٠٠٠م، ربما يكونون قد لاحظوا أيضاً كبير الأساقفة جورج كارى يقف إلى جوار البابا يوحنا بولس الثانى في احتفال مماثل فى روما. وبكلمات البروتوكول فى مثل هذه الأحداث، هو فى موضع تشريفى، ولكن فى كلمات الحقيقة يلعب دوراً ثانوياً. أو، لكى نكون صرحاء، يستدفع بانعكاسات المجد. وهل هناك أى عجب فى أن الشكلىين الصرىحين للانحياز اللذين يواجههما الإنجليز عموماً وإلى الآن والذين تعلموا مراعاة الحرص فى لغتهم بالنظر إلى المجموعات العرقية أو العنصرية أو الدينية الأخرى، هما نزعة معادة الأمريكىين ونزعة معادة الكاثوليك؟ هل هذا هو الحصرم الذى يتذوقه من جاء البديل ليحل محله؟

أما أمريكا، فعلى النقيض، ما تزال تحكى قصة تحظى بالتصديق عن أنها «الشعب المختار»، ويكاد يكون العامل الوحيد الذى يحول بيننا وبين إسباغ ذلك اللقب عليها مباشرة هو الشك المؤرق بأنه فى الحقيقة لا يوجد شعب مختار على الإطلاق، وأن الرب (إذا ما اتفقنا على أن هناك رباً) لا يعمل بهذه الطريقة. وربما لا يهم كثيراً إذا ما كان الأجانب يوافقون على أن أمريكا هى الشعب المختار، أما ما يهم من حيث العائد فهو ما إذا كان الأمريكيون أنفسهم يصدقون ذلك؛ إذ إن الاختيار إلى حد كبير حالة يضع المرء نفسه فيها وتحقيق ذاتى للنبوءة. ومن الواضح أنهم يصدقون، إذا لم يكن بالطريقة التنميطية البروتستانتية التقليدية المستمدة من الكتاب المقدس التى عرفتها الأجيال السابقة، فإنها مستمدة إذن منها بشكل وثيق (وربما بعد أن جردوها من بعض التزاماتها غير المريحة).

ويتصل مثال الشعب المختار إلى درجة عالية بمشكلة العلاقات العنصرية والاندماج العنصرى فى كل من البلدين. والعنصر ليس حقيقة علمية من حقائق الحياة ولكنه بناء إنسانى؛ فهناك عنصر واحد فقط بالمعنى البيولوجى، وهو «الجنس البشرى». وكان «العنصر» يستخدم بصورة تكاد تكون تبادلية مع «الشعب» فى القرن التاسع عشر، وكان يشير لا إلى مجرد الخصائص الجينية المتوارثة فقط ولكن إلى الثقافات المشتركة، والمعتقدات والذكريات. وقد أخذ العنصر معناه الحديث فقط تحت تأثير الداروينية الاجتماعية والنظرية الجينية الباكرة، عند مطلع القرن العشرين. وهكذا، فإن الشعب كمصطلح يصف الجماعة الوطنية، هو الفكرة الأقدم، وأولئك الذين ينظرون إلى العهد القديم بحثاً عن نموذجهم الاجتماعى سوف يجدون وفرة من الأمثلة لمفهوم «الشعب» المستخدم للتفرقة بين «نحن» و«هم»، وفى معظم الأمثلة التفرقة بين العبرانيين ومختلف قبائل الكنعانيين - حتى إلى حد القول بأن «نحن» ربما نجعل «هم» عبداً لنا. وفى اللغة المعاصرة، ويسبب النسب الأموى - (يكون الفرد يهودياً إذا كانت أمة يهودية) فإن هذا التحديد لـ «نحن» هو أيضاً تحديد عنصرى.

ومن ثم فإن مفهوم «الشعب المختار» يمثل مخاطر عظيمة على العلاقات

العنصرية، ومن المؤكد أن هذا هو أصل الشكوك الإنجليزية حول ما إذا كان الشخص الأسود أو الآسيوي يمكن أن يكون إنجليزيًا حقًا. ومجرد الاعتراف بأنهم بريطانيون ليس يكفي؛ لأن هذا تعريف رديء بأكثر مما يجب، كما أنه ليس دالاً بما يكفي (خاصة حين يقلل الاسكتلنديون والويلزيون وغيرهم كثير في شمال أيرلندا من أهمية العنصر «البريطاني» في هويتهم، ويؤكدون على العنصر الاسكتلندي والويلزي والأيرلندي). والإنجليز يرغبون حقًا في أن تكون لهم علاقات عنصرية طيبة، والحقيقة أنهم سيفضلون أن يكونوا مثلاً للأمم الأخرى في هذا المجال؛ ولذلك فإنهم كلما تعلقوا أكثر بماضيهم كشعب مختار، كلما كان ذلك أصعب. وي طرح هذا تحدياً قوياً أمام مؤسستين إنجليزييتين على وجه الخصوص، الملكية وكنيسة إنجلترا؛ لأن هويتهما الماضية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمثال الشعب المختار عن الإنجليزية، وإذا لم تكونا حريصتين، فإن وجودهما سيكون عنصرياً من الناحية الدستورية. وبينما حرص هذا الكتاب على أن يبقى بعيداً عن الصراع في الشرق الأوسط، فإن بعض الاستنتاجات التي توصل إليها عن عواقب نظرية الشعب المختار على العلاقات العنصرية سوف تنطبق على الموقف الإسرائيلي من العرب.

وفي الوقت نفسه، حاولت أمريكا أن تتجاوز الطبيعة المفردة والأحادية للهوية الوطنية الأمريكية، كما كانت منذ نهاية الحرب الأهلية، مثلاً. وقد فعلت هذا دون أن تتخلى عن رؤية نفسها كأمة مختارة. والإنجاز العظيم لـ «مارتن لوثر كنج»، كان أنه أوضح كيف يمكن للتصميم العظيم لأمريكا كأمة مختارة مفردة أن يحتوى داخله على روافد أخرى، جماعات أصغر ترتدى هي الأخرى عباءة المختارين، ولكنها تفعل ذلك بطريقة لا تنكرها على الكل. إنه نموذج للتلاقى في نقطة واحدة، أو «شعب الشعوب». وهناك نموذج من الكتاب المقدس لهذا أيضاً؛ إذ كان الإسرائيليون القدماء في الأصل اثنتي عشرة قبيلة، ولكنهم جميعاً كانوا تحت ميثاق واحد.

و«المشكلة الأمريكية»، إذ حقاً للمرء أن يصوغ مثل هذا المفهوم، هي أنه بينما

كان مطلوباً من هذه القبائل الاثنتى عشرة أن تعامل بعضها البعض بصورة عادلة وبلطف حسب الشريعة الموسوية، لم يكن مطلوباً منها أن تتعامل مع القبائل غير اليهودية، أى القبائل الكنعانية التى تشاطرها العيش فى نفس المكان، بهذه الطريقة. حقاً إن أخلاقيات العهد القديم تبدأ تكتسب صبغة عالمية. وتطبق على اليهود وغير اليهود بالمثل. فى بعض الأنبياء اللاحقين. ويمكن الحكم على مدى عدم توفيقهم من خلال الحقيقة القائلة بأن يسوع كان ما يزال يرى ضرورة التبشير بمثال السامرى الطيب، الذى كان موجهاً بالضبط للسؤال القائل «من هو جارى؟» وتجاه من، غير «الناس الذين مثلى»، أتحمل مسئوليات أخلاقية؟ ومن الواضح أن يهود ذلك الزمان لم يكونوا يفكرون فى أن عليهم مسئوليات أخلاقية تجاه السامريين، وصدمتهم إلى حد ما قصة تقول إن السامريين يشعرون بأن عليهم مسئوليات أخلاقية تجاه اليهود.

وهكذا بينما يحتمل أن تكون أمريكا تحاول أخيراً أن تتعامل بنزاهة مع الجماعات العرقية الثانوية بها، فإنها أمة ما تزال شديدة الوعى بالحدود التى تحدد «مفهوم الشعب» فيها. ويمكن تبسيط هذا بسهولة فى الاقتناع بأن بقية العالم موجود لمصلحة أمريكا. وهذا يختلف عن الدافع وراء الإمبراطورية البريطانية، التى كانت قائمة على أساس الرؤية. مهما كانت عدم كفاءتها فى الواقع. بأن بريطانيا موجودة لمصلحة بقية العالم. وقد يكون هناك بعض العزاء فى أن نعرف أن الشعب المختار الأصيل كان يناضل ضد نفس الصعوبة بالضبط. كانوا شعباً مختاراً، ولكن لمصلحة من؟ ومنذ زمن مبكر، كان من الواضح أن هذا لمصلحتهم، ولكن بمرور الزمن، أشرقت الحقيقة القائلة بأن ذلك كان لمصلحة الإنسانية. وتحتاج أمريكا موعظة السامرى الطيب فيها، وهى سوف تستمع لها من شخص ما.

أعراض الشعب المختار، كما حددناها، تفترض أن الأمم التى يخضع تاريخها لذلك النموذج سوف تمر بدورة. فالإيمان والإخلاص سوف يتبعهما التراخى، ثم عبادة الأصنام والكفر (بالمعنى الدينى على الأقل)، وسوف يؤدى هذا إلى المعاناة

وسوء المصير؛ لأن العناية الإلهية تتدخل لتوقيع العقاب التصحيحي، (وليس هذا لجعل الرب مسئولاً عن سوء المصير؛ فكل ما يفعله هو رفع حمايته). وسوف ينهض الأنبياء لشرح ما جرى مجرى الخطأ ويحضون الشعب المخترار على الرجوع إلى طاعتهم السابقة، وعندما يفعلون ذلك، يعودون مرة أخرى (بعد خلاصهم) لحالة النعمة التي كانوا فيها من قبل.

وسواء كانت لهذه النظرية في التاريخ أية قيمة تنبؤية أم لا، فهذه نقطة فيها نظر. فهل سمح الرب حقاً لشعبه المخترار (البريطانيين) أن يفقدوا مستعمراتهم الأمريكية عقاباً لهم على تجارة الرقيق؟ وإذا كانت تلك خطة الرب، كيف أمكنه في الوقت نفسه أن يحرر شعبه المخترار (الأمريكيين) من الطغيان البريطاني مكافأة على الإخلاص الأمريكي؟ إن القصتين لا تتماشيان سويًا فإذا ما كان الرب يريد لتجارة الرقيق أن تنتهي، لم منح الأمريكيين النصر في حربهم من أجل الاستقلال؟

ويؤدي هذا إلى صعوبة أوسع تتعلق بالتعامل مع نظرية الشعب المخترار، كما لو كانت نظرية حقيقية. وأحد الملامح الرئيسية في التنميط البروتستانتي من وحي الكتاب المقدس، حسبما تم تطبيقه في إنجلترا وفي أمريكا على السواء، تمت المبالغة فيه إلى درجة الخيال؛ إذ لم يكن هناك حقاً مؤامرة بريطانية دفينة لحرمان الأمريكيين من حريتهم سنة ١٧٧٤م، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك تخطيط دفين لفرض ملكية مستبدة، بل وبدرجة أقل، فرض الكاثوليكية الرومانية. وأساءت أمريكا قراءة الإشارات، كما أساءت بدرجة من التعمد إعادة طرحها، وكان الدليل في متناول الجميع. وقصة التطور الدستوري في كندا وغيرها كانت قصة تقدم ثابت صوب الديمقراطية والحرية تحت حكم الملكية، والواقع أن كندا كانت هي الأرض الموعودة بالنسبة للعبيد في أمريكا؛ حيث كانوا يجدون الأمان بين ذراعي الملكة فيكتوريا. بل إن الهنود المحمر سكان أمريكا الأصليين اعترفوا بأنهم كانوا سيحصلون على اتفاق أحسن في كندا.

و«الهروب من الطغيان» على النمط الوارد في الكتاب المقدس بالنسبة لانجلترا، أثناء معظم القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، كانت

تحركه أشباح الكاثوليكية الرومانية، التي نُظر إليها على أنها الإمبراطورية الطاغية للمسيح الدجال. ولكن مفهوم أن الكاثوليكية كانت شيطانية في الأصل كان قد أسقط بشكل يكاد يكون تاماً عند بداية القرن التاسع عشر، وكان أحد المؤثرات في ذلك وصول آلاف من اللاجئين الكاثوليك الفرنسيين إلى إنجلترا هرباً من الرعب. ولم يشعر الإنجليز فقط بالأسف من أجلهم، ولكنهم وجدوهم متحضرين، ومثقفين، ومتعلمين، ومسيحيين بشكل واضح، بكل وسيلة يمكن للبروتستانت أن يعرف بها مهما كان تطرفه. وربما كان لديهم نظام سياسى أدنى، بيد أنه من الواضح أنهم لم يكونوا أعوان الشيطان. إلا أن الكاثوليكية في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر لم تكن تختلف كثيراً عن الكاثوليكية التي برزت من إصلاح مجمع ترنت حتى قبل عهد الملكة إليزابيث الأولى؛ إذ كان هذا المجمع قد بدأ لكى يكون حدثاً محدداً، كان «مجمعاً لإنهاء المجمع»، والحقيقة أنه لم يتم عقد المجمع التالي حتى سنة ١٨٧٠ م. وإذا كانت الكاثوليكية عند بداية القرن التاسع عشر لم تكن تجسيدا للشر، فإنها إذن لم تكن كذلك قبل قرنين من الزمان.

واستمر كتاب فوكس الشهير «Book of Martyrs»، والذي أعيدت طباعته بانتظام طوال تلك الفترة، في نشر رسالته المؤذية. وقد تحرر الكاثوليك سنة ١٨٢٩ م، ولكنهم لم يكونوا محل ثقة حتى ذلك الحين. وعندما تم تكوين السلك الكهنوتى الكاثوليكى فى إنجلترا سنة ١٨٥٠ م، كانت هناك عاصفة من الاحتجاج ولقاءات جماهيرية حاشدة فى جميع أرجاء البلاد. ولكن دونما أن يقدم الكاثوليك تنازلاً واحداً، سرعان ما مرت موجة البارانونيا المعادية للكاثوليكية وتم إعادة نوع من التسامح الفاعل وإن لم يكن كاملاً. ولاشئ من هذا يبرهن على أن الكاثوليكية نظام مكتمل، ولكنه يوضح بالفعل أن المخاوف المتطرفة التى حكمت السياسات الإنجليزية والمشاعر الدينية الإنجليزية فترة تزيد على ثلاثة قرون. وترددت أصداؤها بإخلاص على الجانب الآخر من الأطلنطى - كانت مبالغة إلى درجة جنون الاضطهاد (البارانونيا)، ولعبت نظرية الشعب المختار دوراً رئيسياً فى الدفاع عن إنجلترا ضد البابوية - المؤامرة المزعومة بين الكنيسة الكاثوليكية وأعداء إنجلترا الأوروبيين - ليس أقله ما حدث زمن خلع جيمس الثانى و«الثورة المجيدة»

سنة ١٦٨٨م، وفي التمرد التالي من جانب أنصار المذهب اليقوي الذين شكّلوا مصدر تهديد مستمر. ولكن هل كان الأمر سيصبح كارثياً حقاً إذا ما سُمح لـجيمس الثاني أن يُكمل عهده؟ هل كان خلعه حقاً هو النقطة الفارقة في التاريخ الإنجليزي حسبما قالت أجيال من مؤرخي الهويج الذين ساروا على درب ماكولي؟ أم أن سلخ الكاثوليكية كان ببساطة شرطاً ضرورياً لكي توتى أسطورة الشعب المختار سحرها، بكل ما فاض وتدفق من جراء هذا؟ هل كانت عظمة انجلترا مبنية حقاً على مثل هذه الأسس الخيالية؟

وبذلك فإن استنتاجنا النهائي عن نظرية الشعب المختار ينبغي أن يكون أنه بينما ما تزال هذه النظرية مؤثرة، فإنها ببساطة ليست حقيقية - ولم تكن أبداً - والدليل التاريخي وحده يفندها، مهما نفخنا في الموضوع اللاهوتي. وبينما حققت حيوية قوية في حيازة الأمتين اللتين آمتا بها عن أنفسهما، فإن هذه النظرية جعلتهما يعتقدان أيضاً أن من حقهما السعي وراء مصالحهما الخاصة حتى لو تعارضت مع مصالح الآخرين.

مثل هذه الأمم مصدر تهديد محتمل للأمم الأخرى، بيد أنها سوف تشعر شعوراً مكشفاً بأنها على حق، وتقتنع بأن التبرير الأخلاقي لأفعالها يكمن في وضعها الفريد، كما أنها لن تسمح للآخرين بمحاسبتها. إذا كان «ملاك يركب في الريح الدوارة ويوجه هذه العاصفة» كما كتب جون بيج إلى توماس جيفرسون، فإن استنتاج جورج بوش<sup>(\*)</sup> إذن، يكون صحيحاً: أن الوقوف في وجه أمريكا هو مقاومة لإرادة الرب.

وبينما، لو كانت نظرية الشعب المختار حقيقية، كان يمكن الاعتماد على الرب لعقاب أمة أساءت استغلال وضعها المختار، كما عاقب العبرانيين القدماء في بعض الأحيان، فإن مثل هذه التصحيحات لا تحدث في العالم الحقيقي. وسفر الأمثال (١٦ : ١٨) قد يحذر من أن «قبل الانكسار الكبرياء، وقبل السقوط غطرسة الروح»، وقد يصدقه الأمريكيون وقد يكونوا حذرين بشأنه. وهذه قليلة، بيد أن

(\*) قال ذلك في خطاب تنصيبه رئيساً للولايات المتحدة.

هذا ليس قانونًا عالميًا؛ إذ إن تأثيرات أمة قوية مقتنعة بأن الرب إلى جانبها لا يمكن أن تكون محدودة بذاتها. فهي يمكن غالبًا أن تعمل، صوابًا أم خطأ، وهي متمتعة بالحصانة. والحقيقة، أنه في الحالة المتطرفة، يمكن لحالة الشعب المختار أن تتحول إلى نزعة وطنية دينية حماسية يمكن أن تتحول إلى فاشية.

.....

.....

وأفضل طريقة لضمان ألا يتحول هذا الاحتمال إلى واقع هي أن نكون مدركين له، وأن نتخذ الخطوات لمقاومته. وذلك أمر ضروري للأمريكيين أنفسهم مثلما هو ضروري لبقية العالم. ولكن ما إذا كانت لدى أمريكا وبقية العالم الشجاعة والحكمة المعادلة لهذه المهمة الرهيبة أمر آخر.

\* \* \*